

## المحاضرة الخامسة: الفلسفة كتفكير منهجي عقلاني

تُعد الفلسفة، في جوهرها، نشاطًا فكريًا نقديًا وتساوليًا يسعى إلى فهم أعمق للوجود، المعرفة، والقيم، إنها ليست مجرد مجموعة من الآراء أو النظريات، بل هي قبل كل شيء طريقة في التفكير؛ طريقة تتسم بالمنهجية الصارمة والعقلانية المطلقة. إن اقتران الفلسفة بهذين المفهومين، "المنهجية" و"العقلانية"، هو ما يمنحها قوتها وقدرتها على تجاوز المعرفة الحسية المباشرة والوصول إلى حقائق أكثر عمقًا وشمولية. هذا المقال يستكشف كيف تتجسد الفلسفة كتفكير منهجي عقلاني، وكيف يشكل هذا التزاوج أساسًا للمعرفة الإنسانية.

### أولاً: الفلسفة كتفكير منهجي

#### 1- مفهوم المنهج الفلسفي:

يُشير المنهج إلى أنه جملة الخطوات والمراحل المتبعة بغية الوصول إلى حقيقة ما، فهو تحليل منسق ومنظم للمبادئ والعمليات العقلية والعملية التي توجه الباحث من بداية بحثه إلى نهايته، بحيث تختلف المناهج باختلاف الموضوعات المدروسة.

والفلسفة ليست تأملات عشوائية، بل هي فن وممارسة للتفكير المنهجي في أكثر قضايا الوجود والإنسان والحقيقة والمعرفة والقيمة والفلسفة، في جوهرها هي الجهد الواعي لتطبيق العقل بطريقة منظمة ومحكمة لفهم العالم وموقعنا فيه.

يُعد المنهج الفلسفي حجر الزاوية في ممارسة الفلسفة، فهو يمثل مجموعة الإجراءات والتقنيات التي يستخدمها الفلاسفة لإجراء البحوث، وصياغة نظريات جديدة، وتقييم واختيار النظريات المتنافسة، على عكس العلوم التجريبية التي غالبًا ما تتبنى منهجًا تجريبيًا موحدًا، تتميز الفلسفة بتعدد مناهجها، مما يعكس التنوع الهائل في الأسئلة والتقاليد الفلسفية التي تتناولها، إن المنهج الفلسفي، في جوهره، هو فن بناء وتقييم الحجج، حيث تُعد الأدوات الأساسية مثل المنطق والاستدلال والجدل هي المهيمنة في هذا المسعى.

المنهجية في الفلسفة هي مجموعة القواعد والإجراءات التي يتبعها الفيلسوف في تحليله، استدلاله، وبناءه لنظرياته، إنها تضمن أن تكون النتائج الفلسفية مبرهنة وليست مجرد آراء شخصية، فالفيلسوف لا يكتفي بالقول، بل يقدم الحجج والبراهين المنطقية التي تدعم موقفه، ويخضع هذه الحجج لمعيار النقد والتقييم العقلي..

تتعدد المناهج الفلسفية بتعدد المذاهب، لكنها جميعًا تشترك في هدف واحد: الوصول إلى الحقيقة عبر طريق منظم.

## 2/ الأدوات الأساسية للمنهج الفلسفي:

تعتمد الفلسفة بشكل كبير على المنطق لتوفير القواعد الصارمة للاستدلال الصحيح، مما يمكن الفلاسفة من بناء حجج متماسكة وتقييم مدى صحة الحجج المتنافسة. تُعد الحجة الفلسفية هي الوحدة الأساسية للتحليل، وتتكون من مجموعة من المقدمات التي تدعم نتيجة معينة.

يتضمن الاستدلال الفلسفي نوعين رئيسيين:

-**الاستدلال الاستنباطي:** حيث تُضمن صحة النتيجة إذا كانت المقدمات صحيحة (مثل القياس المنطقي).

-**الاستدلال الاستقرائي:** حيث ينتقل الفيلسوف من ملاحظة حالات خاصة إلى صياغة تعميمات أو مبادئ أوسع.

إن استخدام هذه الأدوات العقلانية يهدف إلى تحقيق الاتساق والتماسك في شبكة المعتقدات، وهو ما يُعرف بـ التنظيم العقلاني، الذي يسعى إلى تحقيق "أفضل ملائمة شاملة" بين الفرضيات والبيانات المتاحة.

## ثانياً: الفلسفة تفكير عقلاني

1/ **مفهوم العقلانية:** تُعرف العقلانية (Rationalism) بأنها النظرة المعرفية التي تعتبر العقل (Reason) المصدر الرئيسي والمعياري الأساسي للمعرفة، وهي مذهب فلسفي يؤكد على أن الحقيقة يمكن اكتسابها من خلال الاستدلال العقلي والحدس، دون الاعتماد الضروري على التجربة الحسية، غالباً ما تُقارن العقلانية بـ التجريبية (Empiricism)، التي تضع الحواس والتجربة في المقام الأول كمصدر للمعرفة. فالحقيقة، وفقاً للعقلانيين، لا تُستمد من المعطيات الحسية المتغيرة، بل من المبادئ العقلية الثابتة والضرورية، مثل مبادئ المنطق والرياضيات.

ويتبع التفكير العقلاني نهجاً منظماً لحل المشكلات، ويركز هذا الأسلوب على الاتساق والترابط، ويستخدم الأدلة للوصول إلى النتائج، غالباً ما يتضمن التفكير العقلاني الاستدلال الاستنتاجي أو الاستقرائي، والهدف هو تحقيق الوضوح والدقة. يتجنب التفكير العقلاني التحيز العاطفي والأحكام الذاتية، ويُستخدم على نطاق واسع في الرياضيات والعلوم والفلسفة.

## ثالثاً: نموذج يجسد المنهجية والعقلانية في التفكير الفلسفي

تُعد الفلسفة، في جوهرها، ممارسة منهجية وعقلانية بامتياز، وقد تجسدت هذه المزاوجة بين العقل والمنهج في أعمال عدد من الفلاسفة الذين لم يكتفوا بتقديم نظريات، بل قدموا طرقاً صارمة

للتفكير تهدف إلى الوصول إلى اليقين والمعرفة الموثوقة، فيما يلي نماذج بارزة لفلاسفة يمثلون قمم التفكير المنهجي العقلاني:

### رينيه ديكارت مؤسس العقلانية الحديثة

يُعتبر رينيه ديكارت (1596-1650) "أبو الفلسفة الحديثة" بفضل منهجه الذي أحدث ثورة في الفكر الفلسفي والعلمي، لقد كان ديكارت يسعى إلى بناء معرفة يقينية لا تقبل الشك، على غرار اليقين الموجود في الرياضيات.

### الشك المنهجي والقواعد الأربع

اعتمد ديكارت على الشك المنهجي كأداة للوصول إلى الحقيقة، وهو شك ليس غاية في حد ذاته، بل وسيلة لتطهير العقل من الأفكار المسبقة والآراء غير المؤكدة لبلوغ اليقين، حيث افترض ديكارت أن كل ما يدركه قد يكون مجرد وهم أو حلم، لكنه وجد حقيقة واحدة لا يمكنه الشك فيها أبدًا: وهي حقيقة أنه "يفكر"، هذا اليقين ليس استنتاجًا منطقيًا بل حقيقة أولية مباشرة: لا يمكن للمرء أن يشك في وجوده كذات مفكرة أثناء عملية الشك نفسها.

وقد لخص ديكارت منهجه العقلاني في أربع قواعد أساسية في كتابه "مقال في المنهج"

**قاعدة البداية (الوضوح):** وتعني عدم قبول أي شيء على أنه حقيقي ما لم يكن واضحًا ومتميزًا في العقل، بحيث لا يدع مجالًا للشك، والغاية من ذلك تأسيس المعرفة على اليقين المطلق.

**قاعدة التحليل:** وتعني تقسيم كل مشكلة معقدة إلى أكبر عدد ممكن من الأجزاء، لتسهيل حلها، وتبسيط المشكلات المعقدة.

**قاعدة التركيب:** وتعني البدء بأبسط الأشياء وأسهلها معرفة، ثم التدرج شيئًا فشيئًا إلى معرفة الأكثر تعقيدًا، قصد بناء المعرفة بشكل منطقي ومتسلسل.

**قاعدة المراجعة (الإحصاء):** وهي إجراء مراجعات شاملة وكاملة للتأكد من عدم إغفال أي شيء، لضمان شمولية وكمال الاستدلال.

### خاتمة

في الختام، يمكن القول إن الفلسفة هي بحق التفكير المنهجي العقلاني بامتياز، إنها ليست مجرد حكمة نظرية، بل هي ممارسة فكرية تهدف إلى إضاءة دروب المعرفة والوجود، من خلال تسليح العقل بالمنهجية الصارمة، تمكنت الفلسفة من أن تكون الأساس الذي تُبنى عليه الحضارات، وأن تظل القوة الدافعة وراء كل تقدم فكري وعلمي، إنها دعوة دائمة للإنسان لكي يستخدم عقله بحرية ومسؤولية، وأن يجعل من التساؤل والبرهان طريقه نحو الحقيقة.